الفصل الحادي والعشرون

سهل شارون

خلال الشهر الذي سبق مغادرة الجيش لعكّا، شَغَل الملك ريتشارد نفسه في إصلاح الأضرار التي لحقت بأسوار المدينة ورفعها حتى بلغت علوّاً هائلاً.

كان مهندساً عسكرياً لا مثيل له، دائم الحركة، مواظباً على التفكّر، فتراه يَذرع بخطى قلقة على طول المتراس المرتجل، مصدراً أوامره بصوت أشبه بالنباح، مستحثّاً رجاله على بذل المزيد من الجهد. في هذه الأثناء، كانت أسلحته المدفعية ـ أي المجانيق الضخمة ـ موضَّبة بعناية استعداداً لأي حصار يُتوقع حصوله في المستقبل. ومع مرور الأيام، تزايد قلق الملك بسبب هذا الترف وما قد ينتج عنه من فساد، فعدد النساء كان كبيراً وحجم الإغراءات ما يزال كبيراً. ولذلك، أمَرَ حجّاجه الفاسقين بمغادرة عكّا والإقامة في خيم نُصبت لهم في سهل خارج المدينة. غاسلات الثياب كنّ الإناث الوحيدات اللواتي سُمِح لهنّ بدخول المعسكر. غادر الجنود المدينة بخطى بطيئة ووجوه بَرِمة، وكان الفرنسيون أكثر الجنود بطئاً وأكثرهم انزعاجاً.

خيِّل للسير ولتر سكوت، بعد عدة قرون، أنّ الملك ريتشارد سعى لإرضاء المستائين بإقامة مبارزاتٍ عظيمة، أعقبت النصر والمجازر، بهدف

تسلية محاربيه المتعَبين والمنتصرين. وأوردت «لوائح سان جون أوف عكا» أنّ الفارس الساكسوني الشجاع، إيفانهو أوف يور Ivanhoe of Yore، هزم الفارس النورماندي الشرير، بريان دو بوا ـ غيلبير Brian de Bois-Guilbert. وعندما أُطلقت على لغة إنكلترا تسمية «الإنكليزية الوسطى»، نُظمت الأبيات الشعرية الرومانسية في البسالة التي أظهرها ريتشارد في عكّا، ولا سيّما في براعته في استخدام فأس ضخم متقن الصنع يزن عشرين باوناً. وعندما دنا قادِسُه ترنشمير من عكّا، وجد ريتشارد سلسلة هائلة تسدّ مدخل المرفأ، فوصفه أحد الشعراء بالملك الشجاع الذي حمل الفأس في يده، ودنا من السلسلة وقطعها إلىٰ نصفين بضربة فأس واحد، ما حثّ البارونات على القول بأنّه صاحب قوة جبّارة:

كان الملك ريتشارد شديد الشجاعة

وقد وقف بفأسه في مواجهة السلسلة

وضربها بفأسه فانقطعت نصفين

حتى قال كل البارونات إنه فارس نبيل وقوي

لقد كان فعلاً صاحب قوّة جبّارة ـ حتى وإن لم يتعدّ الأمر مخيّلة الشاعر.

بعد يومين من المجزرة الرهيبة التي ذهب ضحيتها المسلمون، وفي يوم السبت المقدَّس المكرّس للاحتفال بالقدّيس بارثولوميو، أُطلق النداء للجنود. فأُضْرِمت النيران فجراً كما جرت عادة الصليبيين قبل الزحف، وانقسم الجيش إلىٰ ثلاث فِرَق. حمل كل جندي زاداً يكفيه عشرة أيام، فيما شُحِن القسم الأعظم من المؤونة على متن زوارق. وأبحرت الزوارق والسمّاكات المُثْقلة بالطعام والأسلحة بموازاة الجيش المتوجّه جنوباً على طول الطريق الرومانية البحرية القديمة. وأعقبتها قادِسات خالية على استعداد لاستقبال الجنود في حالات الطوارىء. احتل الملك ريتشارد مكانه على رأس فرسان الهيكل،

والنورمانديين، والإنكليز، فيما توسّط الملك غي الجيش مع قوّاته من سكان البلاد وحرس الشرف الذين كانوا يحيطون بالعلم الصليبي.

رُفِع علم الصليبيين العظيم على سارية شاهقة العلو أُفْرِدت لها عربة خاصة تجرّها أربعة أحصنة عظيمة يبلغ طول كل منها ثماني عشرة يداً. وكان يمكن رؤية العلم على بُعد أميال. لم يكن مجرد علم خاص بالحروب بل كان مُحمَّلاً بمعانٍ إنجيلية فقد كان يقصد منه الرمز إلى تحدّر المسيح من سلالة داود الملكيّة، أي الراية التي تحلّق حول المؤمنون خلال العصور النَبَوية الأولى. وفي مؤخرة الجيش، خيّم السكون على الإسبتاريين والفرنسيين المنزعجين الذين كانوا لا يزالون يتذمّرون لاضطرارهم إلىٰ هجر ملذّات عكّا ويشعرون بالأسى لمغادرة ملكهم.

عَبَر الجيش نهر عكّا وشقّ طريقه في السهول والكثبان الرملية متجهاً إلىٰ حيفا. وما أن دنا من هضبات سلسلة جبل الكرمل وتلاله حتى أطلق العدو غاراته. كان صلاح الدِّين يراقب التقدم البطيء للجيش الصليبي من مركز قيادته في أعلى التلال، وعندما حان الوقت المناسب، أذِن بانطلاق الفرق المُغيرة التي انقضّت على الجيش الصليبي بمجموعات من عشرين أَو ثلاثين رجلاً وهاجمتهم بشراسة. لقد كان مَثَل هؤلاء المغيرين عند الصليبيين كَمَثل الذبابة المزعجة. التي كتب عنها وعنهم أحد المؤرخين المسيحيين قائلاً: «إن أبعدْتَها عنك فستتركك وشأنك. ولكن ما أن تتوقف حتى تعود إليك مجدداً. وما دمت تلاحقها، فستواصل الهروب ولكنها ستظهر من جديد فور توقفك عن ملاحقتها».

إلاَّ أنّ الذبابة كلّفتهم الكثير في الأيام الأولى. فقد صُرع عدد من الجنود الفرنسيين غير النظاميين بالإضافة إلىٰ أربعمائة فرس لا تضاهى. ولفترة وجيزة، فقدت الكتيبة الأخيرة اتصالها بالكتيبة المتوسطة. ولو كان الملك الأفضل ابن صلاح الدِّين على رأس عدد أكبر من الجنود، لنجح في القضاء على

الفرنسيين. بعث الأفضل رسالة لأبيه يقول له فيها: «لو كنا بكامل عدادنا وقوّتنا لكنّا تمكنا من أسرهم جميعاً»[1] ولكن في الوقت الذي بلغت هذه الرسالة هدفها وأرسل صلاح الدِّين مزيداً من قوّاته، سرّع الفرنسيون خطاهم وأقاموا اتصالاً من جديد مع الوحدات المتقدمة. وخلال هذه العملية، أَسَرَ المسلمون نبيلاً كونتاً هنغارياً سمح لشعوره بالإحباط بالسيطرة عليه واندفع بلا احتراس خلف مُلاحِقيه.

تميّز التقدّم حول رعْن جبل الكرمل بالبطء. فبالإضافة إلىٰ المضايقات من جانب المسلمين، كان التنسيق بين العناصر البريّة والبحرية صعْباً. ومع ذلك، خيّبت طول أناة ريتشارد آمال قادته الجنرالات. لم يكن يبدو في عجلة من أمره. كان يأمر رجاله بالسير في الصباح الباكر المنعش هواؤه، وبالتوقف في فترة بعد الظهر القائظ حرّها. وبسبب قلّة عدد دواب التحميل، اضطرّ حوالي نصف الجنود للتحوّل إلىٰ حمّالين في جوّ حارّ خانق. سار الجيش الصليبي سيراً بطيئاً مبتعداً عن حيفا، وهي المعقل الصليبي الأوّل الذي فكّكه صلاح الدِّين قبل أربع سنوات، ثم دار حول جبل الكرمل متجهاً نحو مكان للراحة يدعى نهر القَصَب.

في هذه الأثناءِ، عُرِض الكونت الهنغاري على صلاح الدِّين عقب أدائه صلاة الظهر. بدا الكونت المَجَريُّ مهيباً بقامته النبيلة وأنامله الرقيقة ورأسه المحلوق بدون تنسيق وترك انطباعاً طيباً على حاشية صلاح الدِّين التي تمكّنت من أن تستخلص من الأسير معلومات قيّمة عن الأيام القليلة الماضية. وبعد الحصول على ما كانوا يبتغون، أَمَر صلاح الدِّين بإخراجه وقطع رأسه دون التمثيل به احتراماً لمقامه الرفيع.

---

(1) في ابن شداد، ص 175: «انقطع طائفة منهم عن الرفقة، وقد لززناهم بالقتال حتى قد عادوا يطلبون خيامهم، فلو قوينا لأخذناهم».

لقد كان هذا التسامح يُعدُّ تنازلاً من صلاح الدِّين الذي كان لا يزال غاضباً من المجزرة التي اقترفها ريتشارد قبل بضعة أيام. فسمح لجنوده بالردّ عليها والانتقام عن طريق تقطيع أسراهم إرباً إرباً. وفي ظلّ هذه الظروف، يجيز القرآن هذا الردّ العنيف في الآية التي تنص على ما يلي: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [سورة المائدة: 45]. ولكن صلاح الدِّين بحاجة إلىٰ بعض الوقت كي يتمكّن من قتل عدد من المسيحيين مساوٍ لعدد الضحايا من رجاله. شعر الهنغاري بدنو أجله، فطلب أن يُترجَم له أمر صلاح الدِّين.

وما إن سمع الترجمة حتى صرخ قائلاً:[1] «أنا أُخلِّص لكُم أسيراً من عكّا».

وأجابه صلاح الدِّين ببرود: «بل أميراً».

واعترض الكونت بقوله: «لا أقدر على خلاص أمير». وهزّ صلاح الدِّين كتفيه غير مبالٍ فالقضية ليست ذات أهمية بالنسبة له. ومع ذلك، طالبه أمراؤه بمعاملة الأسير باللين، كما طالبوه بإعادة النظر في المسألة، في فترة ما بعد الظهر. امتطى السلطان حصانه لاستعراض فرقه واستطلاع قوات العدو المنتظمة الصفوف في مواجهة كتائبه. ولا بد أن يكون ما رآه قد ترك أثراً بالغاً في نفسه فقد أمر عند عودته بقطع رأس الهنغاري دون تلكؤ، علاوةً على سجينين مسيحيين، على سبيل الحذر والاحتراز.

بعد عبور محطة نهر القَصَب، خطا الصليبيون داخل مناطق غير مألوفة. وقد كانت الصورة التي ارتسمت في مخيلتهم للأرض المقدَّسة قبل قدومهم إليها صورة مساحات مقفرة إلاَّ من الرمال والصخور، وتلال دائرية الجلاميد يسهل تصوّر المسيح فيها منتعلاً صنداله يطأ به الأرض ويخطب في الجماهير.

(1) عن ابن شداد، ص 178.

وينشد الصليبيون في إحدى أغنياتهم: «أيها الأرض المقدَّسة، منذ المرة الأولى التي وقع نظري الخطّاء فيها عليك، بدأت أعيش حياة نبيلة للمرة الأولى. لقد تحقّق لي ما رغبت فيه دوماً فقد وصلت إلىٰ الأرض التي مشى عليها الرب بشحمه ولحمه».

وما إن التفوا حول جبل الكرمل ودخلوا سهل شارون حتى تبدّلت المناظر الطبيعيَّة فحلّ محلّ الصحراء والكثبان أراضٍ ومستنقعات تغطيها نباتاتٌ عالية وأشجار باسقةٌ وكثيفة. لقد وعدتهم كتبهم المقدَّسة بأرض ريفية تزخر بالينابيع والجداول الشفَّافة ماؤها، وحقول قصب السكر الخصبة، والمراعي المليئة بأزهار زنبق الوادي ووردة شارون. لم يشكِّل المسلمون الخطر الوحيد. فقد كانت فلسطين آنذاك تعجُّ بالأسود والنمور وبقر الوحش والنعام والفهود واللبوءات والضباع؛ فكان البارونات من الطرفين يحترسون منها ويزاولون رياضة الصيد بفضلها في الوقت نفسه.

ولقد طرح فارس سوري صارع الأسود كأي إفرنجي السؤال التالي[1]: «أي عمل يمكن أن يزاوله الرجل إن لم يكن الصيد والحرب؟» أما الطلب على صقور الصيد فقد كان كبيراً، ولا سيّما على الصقر الذي يبلغ عدد ريش ذيله ثلاث عشرة. وإذا أُجيد تدريب هذا الطير، يصبح قادراً على صيد مالك الحزين والغُرْنوق وحتى الغزلان.

في جداول سهل شارون وكثبانه ومراتعه كما في تلال الكرمل، اندسَّت الثعابين والعناكب والتماسيح وتوارى المسلمون. أصابت الرِعْدة الرجال المحيطين بنيران المعسكر لدى سماعهم قصة الحية السامة المخيفة التي تنجب بطريقة ترتعد لها الفرائص. فعند حلول موسم التوالد، يقترب الذكر من الأنثى ويدخل رأسه في فاها حيث يضع بذوره. وما أن ينتهي من ذلك حتى تقضم

(1) قارن بأسامة بن منقذ: الاعتبار، مرجع سابق، ص 192.

الأنثى رأس الذكر المسكين وتنتج بكل سعادة ذريتها المتكوّنة من «دودة» ذكرية وأخرى أنثوية. وذكر المحاربون القدامى قصة «الأفعى الصمّاء» التي تقطن هذه المناطق وتسدّ «أذنيها» بذيلها فلا تسمع بالتالي صوت خطوات الجنود الدانية. وعلى الجنود أن يتنبّهوا عند جني البخور والمرّ من أجل الصلوات أَو لتطهير جثمان الميت، إذ يقال إنّ شجر الصمغ في فلسطين يزخر بالثعابين الطائرة ذات الجلد المرقّط بألوان عديدة والقاتلة عضتها. كما يتوجب عليهم لبلوغ القدس أن يعبروا نهر التماسيح، وهو تيّار جارفٌ، يعجّ بالتماسيح الكريهة التي تعشق التهام الرجال وتولع على وجه الخصوص بالحجّاج المسيحيين. ويا له من مخلوق مثير للقرف والاشمئزاز. فحَسب قول الرواة المتجمعين حول النار، لم تكن لهذا الحيوان أية وسيلة للتخلّص من طعامه بعد مضغه ولذلك فإنه يخلد للنوم بعد الانتهاء من وجبة الطعام على النهر فتزحف الثعابين من خلال فمه الفاغر إلى معدته «وتنظّفها» له من الفضلات. وبذلك تأكل الثعابين الضحايا المسيحية المنحوسة مرتين.

وبما أنّ العقارب والعناكب الذئبية كثيرة العدد يُنْصح الجنود بقرع القدور قرعاً وحشياً في أثناء توغلهم في العشب الفارع لبثّ الرعب في الهوام وحضّها على الهرب؛ حتى وإن كانت أصوات القرع تجعل العدو أكثر دنواً. ومن أجل إبعاد خطر الكفّار والزواحف والعناكب ليلاً، تجمّع الصليبيون حول النار وعيّنوا واحداً منهم موجّهاً للهتافات. فكان يهتف بالقول التالي: «انقذوا الضريح المقدس. ساعدونا! ساعدونا في إنقاذ الضريح المقدس». ويردد الجموع وراءه: «أنقذوا الضريح المقدّس».

وعلى الرغم من العويل والنحيب، يبدو أن الهتاف كان يهدىء روع الجنود وقلقهم ولذلك كان هتاف القائد وترديد الجموع المخيف ينبعث انبعاث الأنين ليلة بعد ليلة ويترجَّعُ صداه فوق التلال والسهول.

شكّلت الكثبان والأشجار الباسقة حاجزاً طبيعياً على طول الطريق

الساحلية المتجهة شرقاً فحال بين الجنود الزاحفين وأعداءهم المتمركزين في التلال. ولذلك تقدم الجيش الصليبي جنوباً باتجاه قيسارية، بأمان نسبي بضعة أميال. إلاَّ أنّه كان بالإمكان رؤية علمهم العظيم من أعلى التلال باتجاه الشرق فقد كان يعتلي صارية بطول مئذنة. لكن قيظ فصل الصيف كان شديداً وتسبّب بفقدان وعي عددٍ كبير، وحتى بموت البعض داخل دروعهم الضيقة التي تزن الواحدة منها تسعين باوناً.

واكب المسلمون المتمركزون في التلال المسيحيين كظلهم. حتى أنّ صلاح الدِّين واظب على خطى سريعة وكان يواصل استشارة قادة جيشه واستطلاع فرقه والتخطيط للأعمال الحربية ولم يكن يوقف نشاطاته إلاَّ لإقامة صلاة الظهر والعشاء. عُرِض عليه عدد من الأسرى المسيحيين ومن بينهم أربعة عشر أسيراً إحداهم امرأة في كامل لباسهم الحربي فأصدر الأمر بإعدامهم جميعاً إذ لم يكن السلطان آنذاك في مزاجٍ طيبٍ أو متسامح، بعد عكا، وقوة العدو.

وجّه صلاح الدِّين قواته الرئيسية نحو الجنوب الشرقي بحيث تعبر وادي جزريل وأنزلها عند تلّ قيمونة فيما ظلّ الكشّافة في نقاط المراقبة في قمم التلال. وظلّ السلطان ينتقل بين جنوده وكشافته. فكان يسير، في اليوم الواحد، خمسة وثلاثين ميلاً، فيسرع خطى حصانه متخطياً هضبة مجدُّو حيث يُفْترض وقوع هرمجدّون، ثم يهمز جواده ويعبر موقع قرية إسخريوط (التي يعتقد البعض بأنها موطن يهوذا الإسخريوطي[1] علماً أنّ القرية الواقعة جنوب الخليل هي التي تجتمع الآراء على أنها موقع ولادته) باتجاه قيسارية متقدماً طلائع الجيش المسيحي. وربما يقيم السلطان موقعه في هذا المكان ـ أي في البلدة التي هدمها منذ أربع سنوات بحيث لا يستخدم الصليبيون مجدداً القلعة البحرية. ولكن مرضاً أصابه وشلّ حركته. فقد غطّت بثور مخيفة مجهولة العلة الجزء السفلي من جسده فكان بالكاد يتمكّن من الجلوس منتَصباً متغلباً على

(1) الشخص الذي تقول الأناجيل إنه خان المسيح ودلّ الجنود الرومان عليه.

الألم الفظيع الذي كانت تسبّبه له. وعلى الرغم من مصابه هذا، فقد كان حسّه بالواجب وشعوره بالخطر يدفعانه لامتطاء حصانه ومواصلة العمل حابساً أنين الألم من البثور الفظيعة.

وأفضى بدخيلة نفسه إلىٰ مساعده قائلاً له:

«يهجرني الألم عندما أكون على صهوة حصاني ويعود إليّ ما إن أترجّل».

قيسارية.. هذه المدينة الرومانية العتيقة التي اشتهرت يوماً بنخيلها وبساتين البرتقال وحليب الجاموس، بنى فيها هيرود ميناءً من الرخام، وعمَّد فيها بطرس كورنيليوس، وعاش فيها فيليب الإنجيلي وأنجب أربع بنات كلهنّ عذروات ونبيات. لقد أصبحت مدينةً للأشباح مهجورة تماماً.

ومع ذلك ظل صلاح الدِّين صامداً. كان الصبر من أهم ميزاته كما كان يهتدي بالآيات القرآنية التي تنص على ما يلي: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سورة النحل: 110].

لقد كان يحذر من توريط قوات جيشه بأسرها، إذ كان لا يزال يأمل في وصول إمدادات جديدة. وكان يدمدم أمام قادة جيشه متذمراً من الأمراء غير المتجاوبين الذين يفتقرون لما يكفي من الحمية حيال أعداء الإسلام. وقد أظهر طوال عدة أيام عدةٍ حيرةً وتردداً فقد كان يأمر بنقل المتاع الخفيف والثقيل نحو الأمام ثم يأمر بالعودة كما لو أنه كان يتحضّر لهجوم كبير ثم يتراجع عن فكرته. كان يرغب، في أحسن الأحوال، في إبطاء الخطى كي يتمكّن من الهجوم على العدو على حين غرّة تساعده في ذلك إمدادات عسكرية جديدة يتوقع وصولها بين يوم وآخر. ولكن حلم الحصول على ساحة حرب مثالية ووصول القوات التعزيزية لم يتحقَّقا. دخل الصليبيون مدينة قيسارية المهدَّمة دون حصول أي تصادم وتقدموا مسافة ثلاثة أميال جنوباً إلىٰ ضفتي نهر يعرف باسم النهر الميت.

الجنود العرب، القرن الثاني عشر (مكتبة الكونغرس)

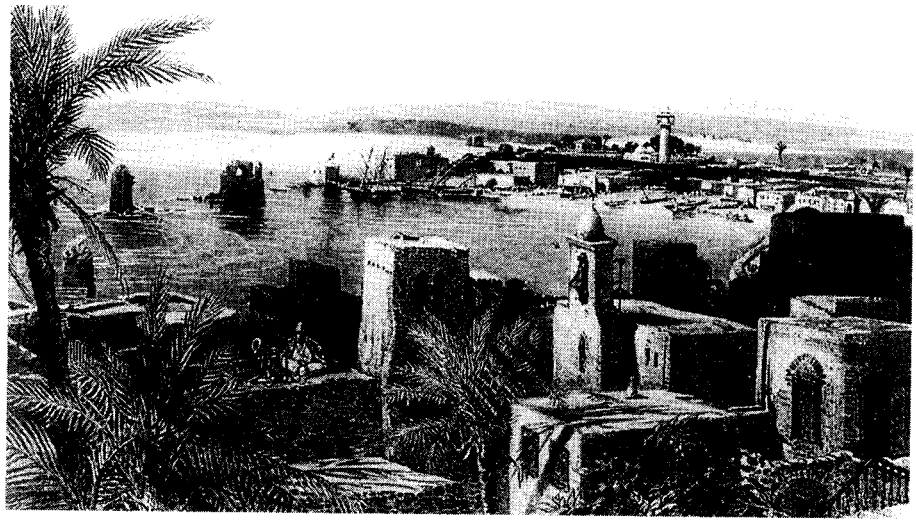

صور

بوابة في عكا، من كتاب Picturesque Palestine
لـ س.و.ولسون (مكتبة Gelman، جامعة جورج واشنطن).

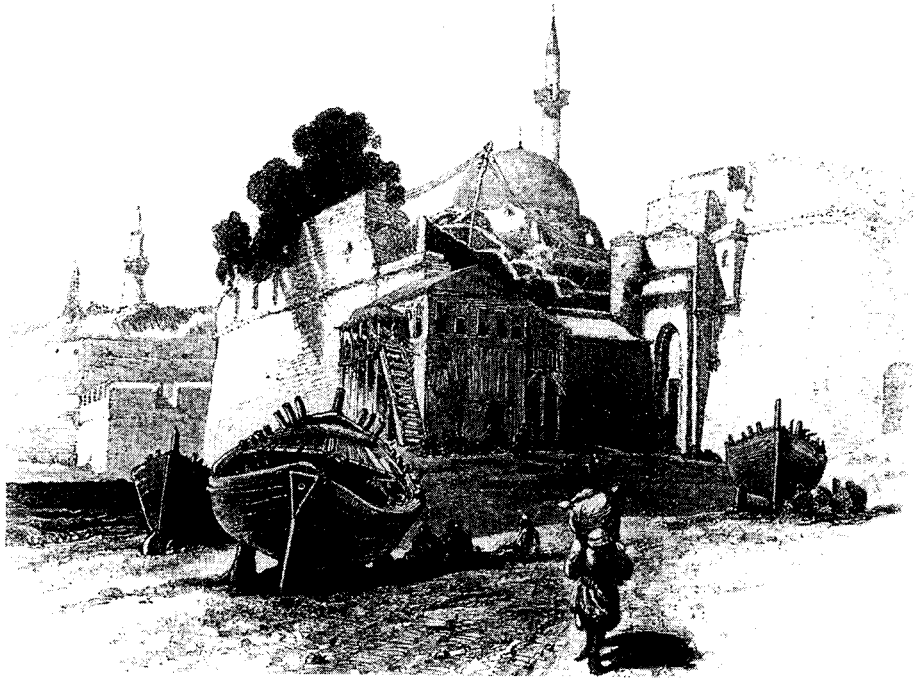

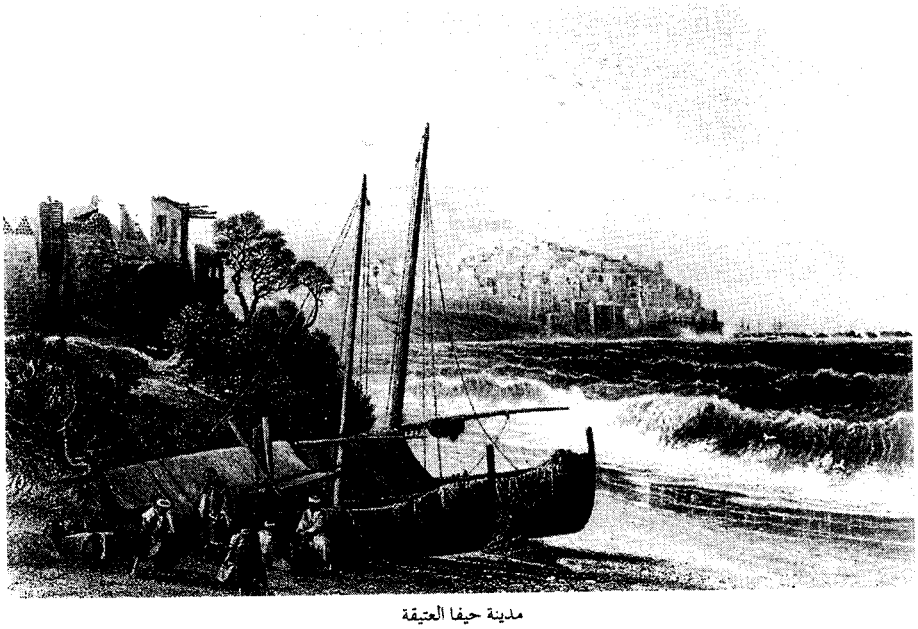

مدينة حيفا العتيقة

ريتشارد قلب الأسد يغادر عسقلان استعداداً للهجوم الأخير على القدس (الذي لم يحدث) (مكتبة الكونغرس)

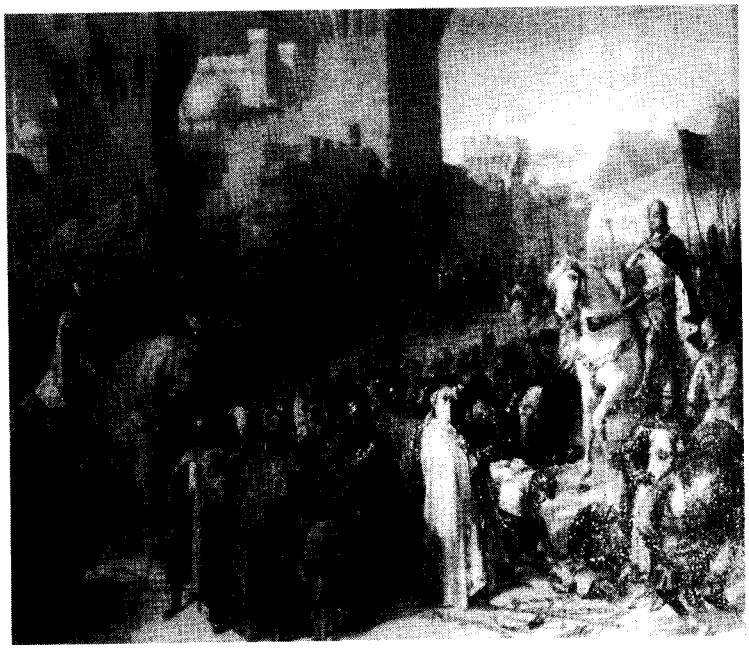

قبر صلاح الدين، الجامع الأموي، دمشق (مكتبة الكونغرس).

مؤذن يؤذن للصلاة قرب الجامع الأموي الكبير، دمشق (مكتبة الكونغرس).

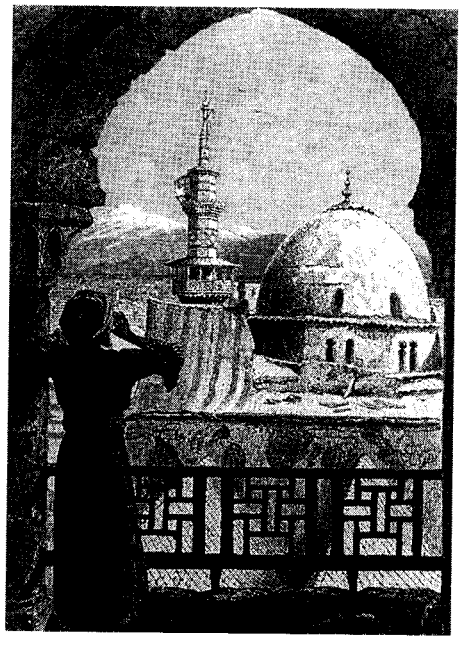

ما أن غادر الصليبيون المدينة المهجورة حتى زادت المناوشات عنفاً. ومع ارتفاع حدة الاعتداءات، انتقل الملك ريتشارد إلى الوسط لقيادة الدفاع وسلّم الملك غي زمام قيادة الطلائع فيما قاد «أبناء سيدة طبرية» قوات المؤخرة. لقد كان انضباط الصليبيين مشهداً له في قلوب المهاجمين المسلمين أبلغ وقع. وفيما هاجم فرسان الطليعة، صفوف الصليبيين، انضبط المسيحيون في نظام محدّد للحرب كما لو أنهم يجرون تمرينات اعتيادية؛ فتقدّم الرماة المدرّعون طليعة الجيش ومن ورائهم وقف الفرسان بانتظار أمر إطلاق النار! وسجّل أحد المؤرخين العرب الحدث بقوله[1]: «هم يرمون بالزنبورك، فيجرح خيول المسلمين وخيّالتهم ورجالتهم. ولقد شاهدتهم وينغرز في ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج». وظهر الجنود المسيحيون لمؤرخ آخر أشبه بالمناجذ لكثرة السهام المنغرزة في أجسادهم[2].

«. . وساروا على هذا المثال وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين، والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب، ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا، وهم يحفظون أنفسهم حفظاً عظيماً. . ويسيرون سيراً رفيقاً. . إلى أن أتوا المنزل ونزلوا. . . فانظروا إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوانٍ ولا نفع. .»[3].

لقد عكس هذا الزحفُ المنضبطةُ صفوفُهُ صورةً لقائد هذا الجيش.

دوّت أصوات المعركة مخيفةً من فوق الكثبان والمستنقعات. فتنافس القرع على الطبول والنفخ في البوق مع هتاف التهليل والتكبير (لا إله إلاّ الله! الله أكبر) و«أنقذوا الضريح المقدس» وهتاف فرسان الهيكل باسم بوسيان Beaux-Seant، رايتهم نصف البيضاء ونصف السوداء حيث يشير اللون الأبيض

(1) عن ابن شداد، ص 179.
(2) عن كتاب الروضتين، 2/ 190.
(3) ابن شداد، ص 179 – 180.

إلىٰ وفائهم للمسيحيين واللون الأسود إلىٰ عنفهم حيال غير المؤمنين.

وفيما تصادمت فرق الخيالة، جرت مبارزات جانبية قضى فيها ببطولة أحد الفرسان المسلمين البارزين. كان رجلاً فارع الطول لقّب بالطويل اعتاد على حمل رمح ضخم لا مثيل له بضخامته أَو ثخانته أَو ثقله في كل فرنسا. ذاع صيت هذا البطل المسلم بين الصليبيين لمشاركاته العديدة في المبارزات الفردية التي كانت تُجرى في أرض تتوسط القوى المتنازعة. أما عند المسلمين فقد كان «من خيالتهم وشجعانهم. وكانت قد استفاضت شهرته بين العسكريين بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة صدّقت أخبار الأوائل.. تقنطر به فرسه فاستُشهِد في ذلك اليوم..»[1].

دوّن أحد الكتبة العرب ما يلي: «كان لا يهوله الهول إذ همّت به همّته. وهو أول من يركب وآخر من ينزل. ويُدْبر سواه وهو مُقبل. ويُسابق إلى المضار ولا يهمل. وهو أبداً يدعو إلى المبارزة، ويعدو على المفاخرة.. فكم كفٍ للكفر كفَّها، وبكر للنصر زفّها، وأنفٍ للشِرْك جَدَعَه..»[2].

مرّة أخرى، تقدَّم الأسد بجهد إلىٰ أرض المعركة متحدياً أي بطل مسيحي في قبول منازعته. ولكنه بدا، في هذه المرّة، أكثر تهوراً كما لو أنّه كان يمنّي نفسه بالموت شهيداً في هذه التحديات الصارخة أَو القيام برحلة سريعة إلىٰ الجنة وسعادتها. وعوضاً عن فارسٍ واحد، شنّت مجموعة من الذئاب المسيحية هجوماً عنيفاً عليه. ويخبرنا المؤرخ العربي أن العملاق العربي جَدَعَ أنوف العديد من الكفار قبل أن يسلم الروح. واستناداً لروايةٍ إسلامية، لم يكن المحارب العظيم ليموت لو لم يخنه حصانه ويتقنطر به، ويسمح بأن يُصْرع. وكَمَثْل سلحفاة مقلوبة، أصبح الطويل عاجزاً أمام المهاجمين المسيحيين

(1) ابن شداد، ص 180.

(2) عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسّي، ص 275.

المندفعين، وقد أثقل الدرع كاهله فمنعه عن الحركة. «ولما أدركه الأصحاب ألفوه وقد فات، ورافق في عليين الأحياء في سبيل الله لا الأموات»[1].

سبّب مصرع البطل فاجعة كبيرة. وقطع المحاربون المسلمون ذيول أحصنتهم إشارة إلىٰ عميق حزنهم. ودفنوا أسدهم في مكان يُعرف باسم مجاهد شيخة. وفي وقت لاحق، أعطاه المؤرخ المسيحي حقّه فقال: «لقد كان رجلاً كيِّساً يتميّز بقوة ومهارة يعجز أي امرءٍ آخر عن قهرها، ولم يكن أحد ليجرؤ على منازلته».

وعند النهر الميت، جُرِح الملك ريتشارد أيضاً جرحه الأول في الحرب الصليبية. كان يُشارك في عراك عندما طُعِن بحربة طعنةً غير مباشرة في جانبه. ويبدو أن الجرح زاده إثارة، فتوغّل أكثر في صفوف العدو. وفيما استمرت المناوشة، كان شغل الملك الشاغل فقدان الأحصنة عوضاً عن الرجال. فقد بدا أنّ المهاجمين المسلمين يستهدفون دوابه عالمين علم اليقين أن أحصنة المعارك الأوروبية ضخمة الأطراف وأحصنة التحميل الضخمة لا يمكن استبدالها. وقدِّرت الخسارة بألف حصان. وما إن أسدل الليل ستاره حتى بدأ الجنود يتساومون حول لحوم الأحصنة المصروعة فاضطر ريتشارد إلىٰ إصدار تعليماته بمنح حصان جديد لكل فارس خسر حصاناً شريطة أن يهب لحم حصانه المصروع إلىٰ الجياع: «وهكذا التهموا لحم الأحصنة كأنّهم لحم غزلان ووجدوه من أطيب ما يكون فالجوع حلّ محلّ التوابل».

استمرّ هذا الاحتكاك الدامي عدة أيام دون أي تبديل في الوضع الاستراتيجي. واصل الجيش الصليبي تقدمه جنوباً عبر سهل شارون. وبسبب اعتماده على الزحف النظامي، كان يتقدّم ببطء السلحفاة فلا يمشي إلاَّ في الصباح عندما يكون الطقس منعشاً بارداً ويحتمي بكل براعة من أي مضايقات

(1) الفتح القسّي، ص 276.

قد يتعرّض لها ويستغل وجود الأنهار كي يعسكر إلىٰ جانبها لعدة أيام؛ يجدّد خلالها نشاطه ويعيد تجميع صفوفه. ولذلك فلم يقطع خلال خمسة عشر يوماً سوى اثنين وستين ميلاً. ولكنه أصبح الآن على بعد مسافة من المَعْقل الصليبي القديم في أرسوف، وهي مدينة ساحلية مسوَّرة ذات قلعة مُجهَّزة بأبراج.

إنَّها المدينة الإغريقية العتيقة التي تحمل اسم أبولونيا، وهي حلقة أخرى في سلسلة القلاع الساحلية التي كانت تسيطر عليها المملكة الصليبية السابقة ومن بينها حيفا وقيسارية، وقد هدمها صلاح الدِّين بعد سنة 1187م. ومن الممكن أن تؤدي إعادة احتلالها إلى عواقب خطيرة. فإن لم يوقف السلطان ريتشارد عند حدّه، تصبح يافا على بعد أميال باتجاه الجنوب. وكتب ريتشارد في هذا الصدد: «سوف نعزّز، من حيفا، مصالح الدين المسيحي، ونناضل لتحقيق أهداف نذرنا». وعندما يسيطر الجيش الصليبي مجدداً على حيفا، والقيصرية، وأرسوف، ويافا، يتحوَّل نحو داخل البلاد ويزحف باتجاه القدس عينها، مدينة الرب الحيّ، ويصبح ردعه عندئذٍ من المستحيلات.

كانت مدينة أرسوف محاطة بغابات وفيرة وحقول خصبة. وغطَّت غاباتها اثني عشر ميلاً شمالاً، وقد أحاط بها أحد المروج القليلة عدداً في فلسطين كلها. ومثّلت الغابات لصلاح الدِّين فرصة عسكرية إذ كان يستطيع أن يخبيء جنوده فعلياً داخلها بانتظار لحظة الهجوم. ووجد في ذلك فرصته الذهبية لوضع حدّ لريتشارد. وما عليه سوى تحقيق هذا الهدف الآن. هكذا بدأ برسم المخططات. لكنّ الشكوك راودت القادة المسيحيين وسرت الشائعات المهدِّدة بوجود كمين في انتظارهم. في أن يدخلوا الغابات حتى يضرم «قطيع الوثنيين وجنس الكفّار سود الوجوه، النارَ فيها».

ثم طُرِح اقتراح للسلام. وخرج صلاح الدِّين من مكمنه بكلمة أبلغها العدوّ إليه عند اتصاله بأحد حراس الطلائع. وطُلِب إجراء مقابلة مع شقيقه الملك العادل. ولم يَرَ السلطان أنّ هذا الطلب قد يلحق بهم الأذى لا بل بدا له

اختباراً لإرادته، ولذلك سمح بإجراء المقابلة. واتجه العادل إلىٰ خطوط القتال الأمامية، وتباحث طوال الليل مع المبعوثين الصليبيين وتميّزت الأجواء بالمودّة إلىٰ حد ما ونقل في اليوم التالي جوهر العرض الصليبي في رسالةٍ إلىٰ المقر العام جاء فيها ما يلي:

قال الفرنجة: «إنّا قد طال بيننا القتال، وإنه قُتل من الجانبين الرجال الأبطال. وإنّا نحن جئنا في نُصرة فرنج الساحل، فاصطلحوا أنتم وهم، وكلٌّ منّا يرجع إلى مكانه»[1].

ساورت الشكوك السلطان حول جدّية هذا العرض. فردّ على رسالة أخيه بقوله: «حاول إطالة المباحثات. وأبقهم حيث هم إلىٰ أن تصلنا الإمدادات التي نتوقعها»[2].

سرعان ما علم ريتشارد بوجود العادل في المواقع الأمامية، فطلب مقابلة شقيق السلطان شخصياً. وخرج الملك في موكب مهيب ترفرف فوقه الرايات وتقعقع الأسلحة الفولاذية. ومشى إلىٰ جانبه ابن همفري أوف تورون ليترجم له. ذكر أحد المؤرخين المسلمين[3] أنّ همفري أوف تورون كان جندياً شاباً جميل الوجه يأسر القلوب كما ذكر وجهه الحليق الشعر؛ وهذا رمز للتخنّث وما يبث في قلوب صغار المسلمين الرعب.

بدأ ريتشارد بإعلان رغبته بالسلام.

انحنى العادل إشارة قبولٍ لهذا التعبير بحسن نيّة وقال: «إن كنت ترغب بالسلام وتودّ أن أكون وكيلك لدى السلطان، عليك أن تفيدني بالشروط التي

(1) ابن شداد، ص 182.

(2) عند ابن شداد: «إن قدرت أن تطاول الفرنج في الحديث فلعلهم يقومون اليوم حتى يلحقنا التركمان، فإنهم قد قربوا منا».

(3) يقصد ابن شداد، وأوصاف «ابن الهنفري» عنده.

تدور في خلدك»[1]. ثمّ مال إلىٰ الوراء واستعدّ لحوار مطوّل هو بالتحديد ما انتدب لأجله.

وأجاب ريتشارد بقوله: «يقوم أساس هذه المعاهدة على ضرورة إعادة كل أراضينا إلينا وانسحابكم عائدين إلىٰ بلادكم».

كلامٌ وَقَع وقع الإهانة، وتعبير عن العجرفة التي اعتاد المسلمون أن تصدر عن الأوروبيين. شعر العادل بالاشمئزاز. لكن وردت في القرآن الكريم الآية التالية: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة الفتح: 26]. وما استطاع العادل التزام كلمة التقوى بل نشب خلاف بينهما على الفور. وسرعان ما عاد القائد المسلم إلىٰ معسكره شاحب الوجه يحثُّ على الاستمرار في الحرب.

وفشلت المباحثات المطوّلة.

عندما سمع صلاح الدِّين الإهانة التي وجّهها ريتشارد لهم، أدار فرقه إلىٰ مواقعهم في السهل جنوب الغابة. دنا الجيش الصليبي منهم فانطلق من نهر الملح إلىٰ نهر العوجاء عابراً أراضي رملية منبسطة ومستنقعات مالحة الماء. ووقف العدو على مسافة ستة أميال فقط من أرسوف. وعشية السادس من أيلول/ سبتمبر من سنة 1191م عُرِض على صلاح الدِّين جنديان صليبيان آخران سيئا الطالع ومن أجل أن يحضّر النفوس ويمهّد للمعركة المتوقع حدوثها في اليوم التالي، أمر بقطع رأسيهما دونما رحمة. وإلىٰ فسطاط ريتشارد أيضاً، بلّغ الكشافة الملك بأنّ الجنود المسلمين متمركزون في الأراضي المواجهة، وأنّ عددهم يفوق عدد عناصر الجيش الصليبي ثلاثة أضعاف.

صادف اليوم التالي عشية ميلاد مريم العذراء.

---

(1) ابن شداد، أيضاً، ص 182 - 183.